"الحياة التشكيلية"
مارس القاهرة ٢٠٠٤



# عام على رحيل رفيق شرف

## أبعد من التذكر و الرثاء...

عمران القيسي*

## مطالعة نقدية لمسيرة فنان معاصر

في أمسية الجمعة من يوم 24 يناير/ كانون الثاني عام 2003، **مات الفنان** اللبناني رفيق شرف. وبمعنى أدق لموت الفنان. لم يعد رفيق **يرسم بعد الآن**. رغم أن مثل هذا **الفنان سيبقى** حاضراً لزمن لا يستهان به.

كان رفيق شرف البعلبكي المولد، كائناً يحمل ثنائيات هائلة. فهو السلس الصعب، وهو الهادئ المتفجر، وهو الملون وكاتب النص الذكي، بل هو القريب البعيد في ذات اللحظة التي تتقارب وإياه على أي أمر من أمور الحياة.

مع ذلك فإن موته كان الإشكالية الأكبر بالنسبة لكل الذين حاولوا وسيحاولون الكتابة عنه، لأنه يصعب أن تكتب عن فن رفيق شرف بمعزل عن نزواته، ويستحيل أن تبحث عن تعريف مختصر لفن رفيق شرف دون أن تذهب في سردية مسيرته المتنوعة. لكن ذلك ليس استصعاباً لأية قراءة نقدية، لفنان لبناني، استطاع أن يؤكد ذاته كحاضر قوي في مسيرة فنية، تمتاز أصلاً بالاختبارية المتنوعة، والاجتهادات الفردية، التي طالما حولت اللوحة اللبنانية إلى نزوة فردية تمتلك . هي تشعر أنها تمتلك . كامل الحق في تأويل العمل الفني، وإيجاد الغطاء الذهني المناسب له.

فن يبحث عن غطاء ذهني، هل هذا ما نستطيع أن نسميه استطراداً بالفن الباحث عن نص بلاغي يبرره، ويمنحه المسوغات الوجودية؟!

هناك من يرى في الفنون (الوطنية) لعربية منذ تفشي التعبيرية المرتكزة على عمودي الأكاديمية والثقافة لذهنية. أنها لم تذهب صوب الإنسان كقيمة متغلبة على قيم المدينة والريف والتقاليد. بل ذهبت إليه كقيمة متنحية ومضغوطة تحتل دائماً الموقع التفسيري للحدثين الزماني والمكاني. أي للقضية والمدينة.

ولهذا فإن الثقافة السمعية العربية هي التي كللت وعلى مدى عقود عديدة هامة النص البصري التصويري، ومنحته في كثير من الأحيان مشروعية امتلاك العمل الفني وتوضيحه لدى المتلقي العربي.

رفيق شرف لم يكن منذ بداياته بعيداً عن هذا التيار العربي العارم. وربما لأنه درس في إسبانيا بالذات على يد «إميليو لوبيز» وهو بالمناسبة فنان إسباني راحل. من مواليد (فيتوريا) بمنطقة الباسك الشمالية.. لوحته مندهشة بالسهول الشاسعة الممتدة من حدود سان سيباستيان إلى جنوبي بلباو

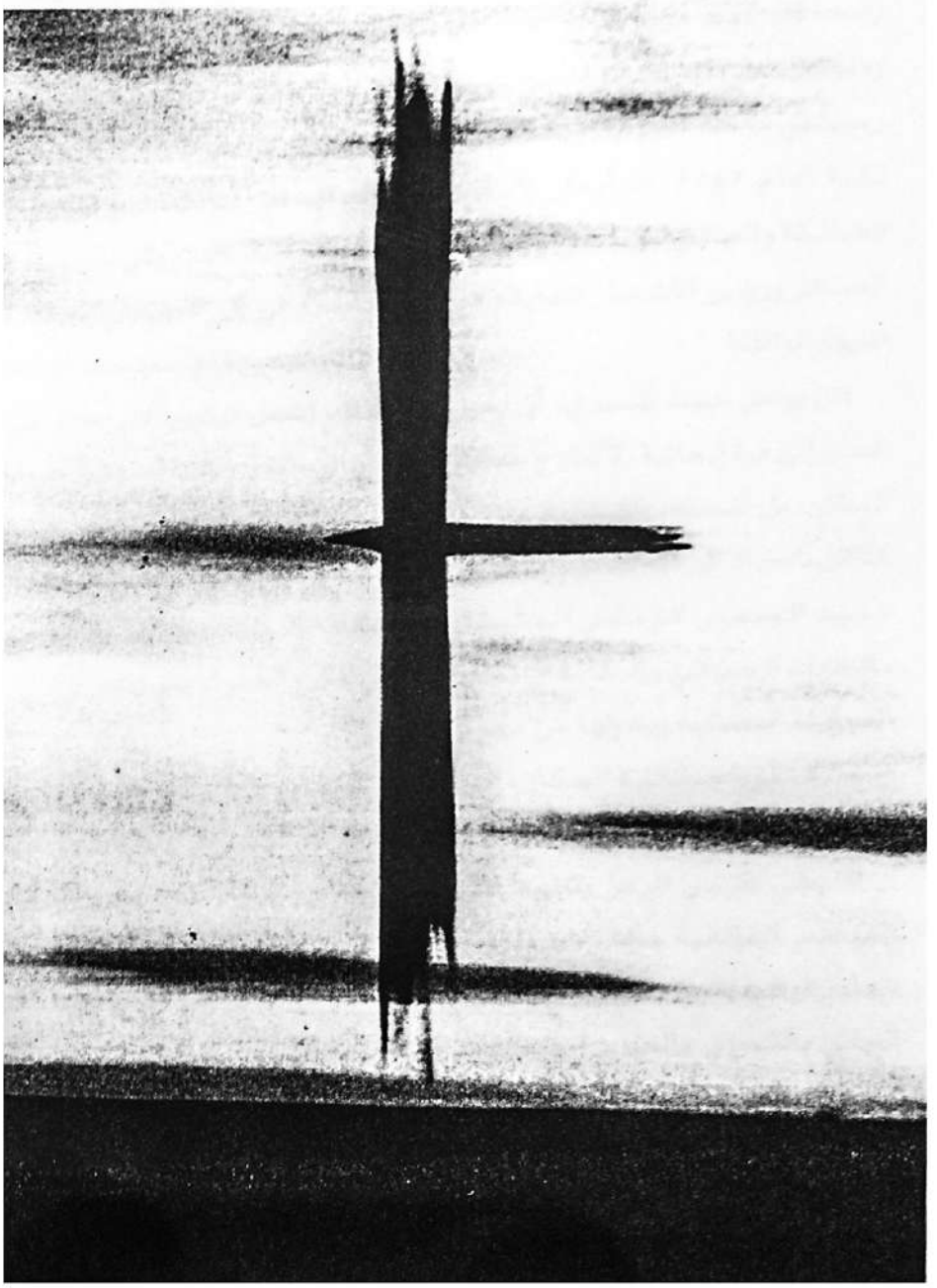

طائر سهل البقاع

حتى شرقي فيتوريا.. وهذه المنطقة بالذات تكاد تشبه منطقة البقاع التي هي الأخرى عبارة عن سهل شاسع محصور بين سلاسل جبلية شرقية وغربية.

فمرحلة السهول، وهي مرحلة مبكرة عند الفنان رفيق شرف كانت ذات نكهة مزدوجة، بقاعية وإسبانية. لكن الذي أضافه شرف، كان الرموز المحلية التي طالما اغتنت بها منطقة بعلبك مسقط رأسه. فقد رسم مقام الشيخ عبد الله. ومنطقة حجر الحبلى. كما رسم السهل رمزياً في مرحلة متقدمة. وبخاصة بعد نكسة العام 1967. إذ أدخل الأسلاك الشائكة والعالم الضبابي و صلادة الصخر ورؤوس الأشجار الغارقة في الغيوم الواطئة.

كان يسعى حسب تفسيري، أن يحول المدى إلى قوة إيحائية. لا تطرح جمالية المكان، بل أنسنته. وإشكالية علاقته كمكان بالحياة اليومية للناس البقاعيين ، حيث العنصر الزماني المتمثل بالحدث الحياتي بإمكانه أن يقلب المعادلة الجمالية ويحولها من مجرد رسم رصدي لجمالية المكان، إلى انفعال إبداعي بقوة المكان.

ألا يعني تكريس الرمز وتغليبه على العناصر المكانية حالة تغليب لرؤيا تتجاوز الواقع. وتصر على ربط المعطى العياني بالشعوري والحسي استخلاصاً لتلك الدلالات السامية التي يعتقد الفنان الأصيل أنه منذور لها؟!

إذا درسنا مرحلة السهول عند رفيق شرف سنجد أن هذا الفنان أراد في النهاية أن يوصل رسالة نبيلة عن مكان يتعامل معه الآخرون بجمالية محايدة.. فهناك العديد من الفنانين المجايلين لرفيق شرف رسموا السهل البقاعي، ولكن كانوا مأخوذين بعوالمه الانطباعية التأثيرية، حيث العلاقة بين الأضواء المتغيرة طيلة ساعات النهار، والمساحات المزروعة والمقسمة بما يشبه حقول بول كلي.

السبب في نضوج هذه الرؤيا عند رفيق شرف هو التحامه بالجو الثقافي السائد في بيروت. فهو فنان بعلبكي المولد لكنه بيروتي بامتياز. كان حاضراً في كل الأنشطة الثقافية سواء أكانت شعرية أم مسرحية أم نقدية. لذلك اشتغل ديكورياً في إحدى مراحله مع الرحابنة، وكتب نصوصاً جريئة في كبريات الصحف وملاحقها الثقافية. كما كان حضوراً دائماً في مقاهي الثقافة التي كانت تشكل علامة مضيئة في شارع الحمراء ببيروت.

وتناول العصفور ليس ككائن له تفاصيله المعروفة، ولكن كقوة تأليفية في ضربة فرشاة تعتمد على الخطين أو القوتين العمودية والأفقية، حيث الخلفية التي هي أيضاً فضاء شبه أحادي اللون شكلت مع المقدمة قوة تأليفية منشطرة.

أعتقد أن مرحلة العصفور عند رفيق شرف كانت مرحلة انتقالية، لأن

عنترة و عبلة

التخطيطات الكثيرة التي اشتغل عليها الفنان في بيته، وقد اشتراه أواسط السبعينيات في منطقة برج أبي حيدر ببيروت. كانت تشير إلى بحثه المستمر عن الخط المركزي الذي سوف يتسلمه بقوة وانفعال.

كانت لوحة عنتر وعبلة، والحصان الأبجر، وهي السمة التي طبعت رفيق شرف وعززته. هذا الموضوع كان موجوداً قبل أن يرسمه رفيق شرف. إذ كان في الشام «أبو صبحي التيناوي» لم يزل يرسم فطرياً. وكان عنتر التيناوي الفطري بألوانه الكونتراستية المباشرة، يشير إلى مفهوم مبسط للحكاية الشعبية المتداولة. لكن رفيق شرف الذي صاغ الموضوع بوعي ثقافي وتشكيلي ناضج، قدم لنا صياغة جمالية أخرى.

إنه مزيج من التأليف التكعيبي البيكاسوي من حيث التشريح للكائن الأنسي. وهو على مستوى التأليف العام يستلهم حصان المنمنمة الإسلامية بعرفه الغزلاني، وأطرافه الدقيقة. لكنه

سوف يذهب صوب أنسنة الموضوع برمته. عندما يمنحه ذلك الإكسسوار البدوي السائد في بعض مناطق شمال بعلبك. أما الخلفية فغالباً ما جاءت حافلة بالرسوم التزيينية.

هذه اللوحة المرسومة بألوان حادة ومباشرة وذات إضاءة استثنائية، بفعل استعمال الفنان شرف لطبقتين أساسيتين من الزيت. الأولى هي الزيت السائل. وفوقها زيت الرسم مع ألوان ميتاليكية كالذهبي والفضي الصناعي.

نقول إن لوحة مرسومة بهذا التوهج الديكوري وببعدين، وهي تحكي نصاً من حكاية قيد التداول كان لا بد لها وأن تستثير الكوامن الانفعالية لدى العديد من النقاد الذين بدأوا يفسرون مرحلة عنتر بالدعوة إلى استعادة البطولة للعربي المنهزم في أخطر هزيمة هزت كيانه.

حتى عندما انطلقت الحرب الأهلية في لبنان بعد عام 1975، قال لي رفيق شرف، إنه سوف يرسم عنتر مقاتلاً في منطقة الأسواق ضد اللصوص الذين يحملون السلاح ويكسرون أقفال المحلات وأبواب البيوت..

لقد انغمس رفيق في عنترة، و اقتنع أنه جزء من رؤياه الثقافية النقدية إزاء العالم العربي برمته. فإذا كان عنتر في اللوحة الشعبية عند الرسام الفطري عنواناً للفروسية والبطولة والعزة العربية، فإن عنتر رفيق شرف تحول في نهاية الأمر إلى وخز للضمير العربي إزاء الهزيمة.

ووصلت لوحة عنتر إلى مرحلة انفراد رفيق شرف بالحصان وحده. لقد غيب البطل. أنهاه من هذا الوجود العربي واللبناني الذي تحول إلى عالم يركن في قاع الهزيمة والحرب الذاتية المدمرة. لذلك رسم الحصان كرمز للثورة والجمال والكرامة.

كان حصان رفيق شرف المرسوم ببعدين اثنين صاحب صهيل يصل إلى حدود الاستغاثة. لذلك رسمه وسط مدينة محترقة بالأسود والأبيض ولكن مع تفاصيل مثيرة هذه المرة.

حصان رفيق شرف كان من أجمل وأغنى مراحله. فهو الرمز الذي استطاع أن يكثف الفنان عبره جمالية وعنفوان الكائن العربي الأكثر أصالة على مدى التاريخ.

ومع بروز التيار الحروفي. ذهب رفيق شرف صوب الإشارية الحروفية. إذ تعامل مع الحرف كزخرفة أو كوحدة زخرفية ذات حضور تجريدي متحرك، وقد اشتغل مجموعة هائلة من هذه الحركات التي تنداح أحياناً من الحرف إلى الإشارة. ولكنه في نهاية التوزيع العام للعناصر على المسطح التصويري

عنترة

اقترب كثيراً من عوالم (خوان ميرو)، الذي كان رفيق يعرف العمق التأصيلي لإشاراته التجريدية المتحركة.

لوحة حروفية. نصيّة بكتابتها المقروءة. حاوية كل إشارات تجريدية معروفة. وملونة بأنواع اصطلاحية. هي المدى الأوسع للغة يعتقد. اعتقد. الفنان أنها نقطة الالتقاء بين مضمونين أساسيين ثقافي وتشكيلي. أولهما نابع من الموقع العربي للفنان وثانيهما نابع من الموقع الأكاديمي ومن جذور دراساته الأساسية.

ولأن رفيق شرف انفعالي يتأثر بالحدث، ولا يبتعد عنه إلا عندما يرتوي من مؤثراته . هكذا كان حاضراً فاعلاً في حركة المحرومين التي أسسها الإمام المغيب السيد موسى الصدر. وهكذا كان موقفه أيضاً من الثورة الإيرانية التي هزته من الأعماق..

تناول في هذه المرحلة بالذات ما

الحصان الأبيض

أسماه بالأيقونة الإسلامية. وهو تناول للمنمنمة الإيرانية، ولكن بشكل تفسيخي وتجميعي في آن.

لقد فسخ المنمنمة إلى عناصرها الأساسية، حيث حركة الإنسان الجالس، والهالة التي تحيط به، ثم اللون الأزرق الفيروزي المتفاعل مع الذهبي، مع التقسيم الهندسي السكوني لمسطحها التشكيلي.. وهنا سنجد أنفسنا أمام عمل تصويري ببعدين ينهض على مفاهيم تلوينية هي أقرب إلى الصناعة (الترجينية) للمنمنمات القديمة. وكتابة تشكيلية تقتطف الشكل الخارجي للكائن المرسوم ببعدين في متن نص المنمنة الإسلامية.

لقد ذهب رفيق شرف مع هذه المرحلة إلى المدى الذي أغناه عن كل نص أراد أن يقوله أو يكتبه عن الفنون الإسلامية الفارسية. إذ تبدى إعجابه بها حتى الحدود القصوى للاستعارات اللونية.

لكن الأهمية القصوى لمراحل رفيق شرف وهي كثيرة ومتنوعة. منها مرحلة ركز فيها على رسم (القطط) في أوضاع استثنائية. ومنها مرحلة رسم فيها ركام المدينة المحترقة. نقول إن الأهمية القصوى لمراحل الفنان هي تلك التي عاشها في السنوات السبع الأخيرة من حياته. إذ ذهب صوب اجتهاد ينهض على نظرية استعادته لكل مراحله التي نفذها. وإعادة صياغتها منفردة أو مجتمعة، بحيث يبلور فيها عصارة وعيه ونضجه وتفرغه للمحترف والعمل الفني، بعد أن خرج من سلك التعليم الجامعي وهو الذي شغل منصب مدير الفرع الأول لمعهد الفنون ردحاً من الزمن.

هذه المرحلة هي معيار نضج الفنان الذي قدم لذاته و لورثته مجموعة أعمال خالدة. تطرح رفيق شرف تلك القوة المتكاملة تشكيلياً. والناضجة. بل والناقدة لكل ما أنتجه في الماضي.

علماً أننا يجب أن ندرك بأن رفيق هو من الفنانين اللبنانيين القلائل الذين يبرعون في «اليورتريت» المباشر والسريع. وفي مرحلة من مراحل حياته، قبل أن يتزوج كنا على اتصال يومي معه. مارس غواية الرسم السريع للوجوه بشكل ناضج للغاية. لكن لهذا الراحل حس مرهف بالزمن.. والذي أحتفظُ به الآن. هو ذلك «البورتريت» لولدي الدكتور ربيع عندما كان طفلاً. إذ كتب تحت توقيعه «إلى ربيع أرجو لقاءك في خريف العمر». كان هاجس الموت يرافقه دائماً. وكانت إشكالياته الحياتية تقوم على قاعدة واحدة. قوامها أن الموت من الأمور الاستثنائية التي لا تخيف الكائن غير الاستثنائي. لكن رفيق شرف الصعب السهل، المتفرد والاجتماعي، هو الذي يحتوي في كيانه إنساناً استطاع أن يرسخ عبر سلوكه. شخصية فذة. يصعب أن تتكرر أو تقلد بين جميع الفنانين، وسواء اقتربت من رفيق شرف أو ابتعدت عنه، فإنك لا بد وأن تدرك الآن وبعد عام من رحيله، بأن هذا الفنان ترك فراغاً في

المقهى والمرسم والنص والحياة. وأنه ذهب أبكر مما كان ينبغي أن يبقى لينتج الأنضج. سيما وأنه بدأ مشروعاً نقدياً حيال ميراثه التشكيلي كله، وذلك رغم أنه من أكبر الذي يعتزون بأبسط ما أنتجوه.

موت رفيق شرف عملية غدر إزاء الذين يعرفونه.. لذلك يستحيل أن نتحدث عنه بغير هذه اللغة المنحازة إلى مسيرته وتجربته وثقافته النقدية المعاندة. ألسنا بحاجة إلى من يتعامل مع هذا الواقع العربي واللبناني المعيوش بذات النظرة الغاضبة التي طالما نظر فيها رفيق شرف للعالم المحيط؟!

**رفيق شرف في سطور:**

- يوم 5 آب من عام 1932 ولد الفنان بمدينة بعلبك.
- درس الفنون في الأكاديمية اللبنانية للفنون، حيث تتلمذ على يد الفنان الانطباعي اللبناني قيصر الجميل.
- سنة 1955 سافر بمنحة دراسية إلى إسبانيا ليدرس في أكاديمية سان فرناندو الملكية.
- أشاد به أستاذه الفنان الإسباني الكبير إميليو لوبيز. ورأى فيه كتلة انفعالات شرقية.
- سافر أيضاً إلى إيطاليا لاستكمال دراساته.
- دخل كأستاذ فن في معهد الفنون الجميلة في بيروت. واحتل مركز مدير الفرع الأول قبل أن يتقاعد قبل أعوام من وفاته.
- أقام معارض فردية كثيرة داخل لبنان وخارجه، كما شارك في أغلب المعارض الجماعية اللبنانية ونال جوائز عديدة.
- اقتنت الدولة اللبنانية مجموعة من أعماله على فترات عديدة.
- حصل على أوسمة رسمية وتنويهات عديدة من قبل العديد من الجمعيات.
- خلف مجموعة كبيرة من الأعمال. تعتني بها زوجته وأولاده بغية تنظيمها في متحف خاص يليق به.

❖ ❖ ❖